كان ما تقدمت حكايته من صنوف أذاهم الرسول E أقوالا في مغيبه فعطف عليها في هذه الآية أذى خاص وهو الأذى حين يرونه . وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زي الكبراء والمترفين لا يجر المطارف ولا يركب النجائب ولا يمشي مرحا ولا ينظر خيلاء ويجالس الصالحين ويعرض عن المشركين ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء وأولئك يستخفون بالخلق الحسن لما غلب على آرائهم من أفن لذلك لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذا رأوه بأن حاله ليست حال من يختاره ا لرسالته دونهم ولا هو أهل لقيادتهم وسياستهم . وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه .

و (إذا) ظرف زمان مضمن معنى الشرط فلذلك يجعل متعلقه جوابا له . بجملة (إن يتخذونك إلا هزؤا) جواب (إذا) . والهزؤ بضمتين : مصدر هزأ به . وتقدم في قوله (قالوا أتتخذونا هزوأ) في سورة البقرة . والوصف للمبالغة في استهزائهم به حتى كأنه نفس الهزؤ لأنهم محضوه لذلك وإسناد (يتخذونك) إلى ضمير الجمع للدلالة على أن جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه وهم في مجالسهم ومنتدياتهم . وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنهم انحصر اتخاذهم إياه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه ولا يخلطون معه شيئا من تذكر أقواله ودعوته فالاستثناء من عموم الأحوال المنفية أي لا يتخذونك في حالة إلا في حالة الاستهزاء .

وجملة (أهذا الذي بعث ا رسولا) بيان لجملة (إن يتخذونك إلا هزؤا) لأن الاستهزاء من قبيل القول فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجاذبتهم الأحاديث بينهم .

والاستفهام إنكار لأن يكون بعثه ا رسولا .

واسم الإشارة مستعمل في الاستصغار كما علمت في أول تفسير هذه الآية .

والمعنى : إنكار أن يكون المشار إليه رسولا لأن في الإشارة إليه ما يكفي للقطع بانتفاء أنه رسول ا في زعمهم وقد تقدم قريب من هذه الجملة في قوله تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم) في سورة الأنبياء سوى أن الاستفهام هنالك تعجبي فأنظره .

أما قولهم (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لو لا أن صبرنا عليها) فالمقصود منه تفاخرهم بتصلبهم في دينهم وأنهم كادوا أن يتبعوا دعوة الرسول بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح فكان تأثر أسماعهم بأقواله يوشك بهم ان يرفضوا عبادة الأصنام لو لا أنهم تريثوا فكان في الريث أن أفاقوا من غشاوة أقواله وخلابة استدلاله واستبصروا مرآة فانجلى لهم أنه لا يستأهل أن يكون مبعوثا من عند ا فقد جمعوا من كلامهم بين تزييف حجته وتنويه ثباتهم

في مقام يستفز غير الراسخين في الكفر . وهذا الكلام مشوب بفساد الوضع ومؤلف على طرائق الدهماء إذ يتكلمون كما يشتهون ويستبلهون السامعين . ومن خلابة المغالطة إسنادهم مقاربة الإضلال إلى الرسول دون أنفسهم ترفعا على أن يكونوا قاربوا الضلال عن آلهتهم مع أن مقاربته إضلالهم تستلزم اقترابهم من الضلال .

و (إن) مخففة من (إن) المشددة والأكثر في الكلام إهمالهم أي ترك عملها نصب الاسم ورفع الخبر والجملة التي تليها يلزم أن تكون مفتتحة بفعل من أخوات كان أو أخوات ظن وهذا من غرائب الاستعمال . ولو ذهبنا إلى أن اسمها ضمير شأن وأن الجملة التي بعدها خبر عن ضمير الشأن كما ذهبوا إليه في (أن) المفتوحة الهمزة إذا خففت لما كان ذلك بعيدا . وفي كلام صاحب الكشاف ما يشهد له في تفسير قوله تعالى (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) في سورة آل عمران والجملة بعدها مستأنفة واللام في قوله (ليضلنا) هي الفارقة بين (إن) المخففة وبين (إن) النافية .

والصبر : الاستمرار على ما يشق عمله على النفس . ويعدي فعله بحرف (على) لما يقتضيه من التمكن من الشيء المستمر عليه .

A E